نحو فلسفة عربية
لأدب الطفل العربي(*)

يؤلف أدب الأطفال أداة مهمة من أدوات تنشئة الطفولة التي تعتبر عماد المستقبل وركيزته، وذلك لأن أدب الأطفال يسهم وبقوة في بناء شخصية الطفل التي تقوم عليها في المستقبل شخصية المجتمع الجديد بأكمله. على الرغم من هذا كله ومن الأهمية التي يحتلها أدب الأطفال في بناء شخصية المجتمع المستقبلية، فإن الاهتمام بأدب الأطفال في الوطن العربي ما زال ضعيفاً ولم يُعطَ حقه بعد، وفي الوقت الذي تجري فيه العديد من الدراسات والبحوث فيما يتعلق بأدب الأطفال في الدول المتقدمة، فإن مثل هذه البحوث والدراسات في الوطن العربي حول أدب الطفل العربي لم تأخذ طريقها إلى جانب الدراسات والبحوث الأخرى. وقد زاد الاهتمام بأدب الأطفال في العالم، وأصبحت له مواده المنهجية التي تكوّن جزءاً من المناهج في العديد من كليات الإعلام، ومدارس المكتبات والمعلومات، ومعاهد التربية، ومعاهد إعداد المعلمين والمعلمات، وقد أخذ عدد من الدول النامية في الاهتمام بهذا النوع من الأدب بعدما عرف أهميته في بناء المجتمعات القوية.

ولو أننا ألقينا نظرة على مناهج عدد من المدارس وكليات الإعلام والمكتبات والمعلومات وغيرها من المعاهد الأخرى في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، لما وجدنا مدرسة واحدة أو كلية واحدة بدون مادة أو منهج في أدب الأطفال. ولو ألقينا نظرة على مناهج كليات وأقسام المكتبات والمعلومات الموجودة بالجامعات العربية لتأكدنا أن أكثرها لا يحتوي على مثل هذه المادة أو هذا المنهج، على الرغم من أن الاهتمام بأدب الأطفال العرب قد أخذ طريقة في السنوات العشر الماضية، خصوصاً في بعض وسائل الإعلام، وتم عقد عدد من الندوات التي تهتم بثقافة

(*) نشرت بمجلة الناشر العربي، ع11، 1988.

الطفل العربي، وما يجب أن يقدم للطفل العربي، مثل ندوة القاهرة التي عقدت في عام 1972 وغيرها من الندوات الأخرى في بغداد والكويت. . وأصبحنا بين الحين والحين نرى عدداً من المقالات والدراسات في هذا الميدان في عدد من الدوريات العربية والمجالات الثقافية الأسبوعية وغيرها.

والطفل في مرحلة نموه العقلي «يبدأ في التعرف بالحياة على أساس أن خبراتها الماضية سبيل إلى فهم أعمق للحاضر»[1]، ومن هنا ومن هذا المبدأ، فقد يكون أدب الأطفال أقوى الطرق التي يعرف بها الطفل الحياة بكل جوانبها الماضية والحاضرة والمستقبلية[2].

وعلى الرغم من أن أدب الأطفال هو السبيل والطريق الذي يجعل الطفل يطلق العنان لخياله وطاقاته الإبداعية، والأداة التي يطور بها الطفل وعيه وطريقة فهمه للحياة، وينمي إدراكه الروحي، ويقوي محبته للجمال وشوقه لروح المعرفة والمغامرة والاكتشاف، ويبني فيه الإنسان الجديد، على الرغم من هذا كله فإن الطفل العربي عاش محروماً من أدب رفيع يكتب له خاصة، مدة طويلة من الزمن[3].

وأدب الأطفال في الواقع لم يكن جديداً أو طارئاً على الأدب العربي فقط، بل هو في حقيقة الأمر يعتبر طارئاً على جميع الآداب العالمية، وذلك لأن الإنسان لم يقف على حقيقة سلوك الطفل ومعرفة أحاسيسه وشعوره إلاَّ في السنوات التي أعقبت عصر النهضة الأوروبية، وبداية وجود مدارس التربية وعلم النفس[4]. ولا عجب في أن هذا النوع من الأدب جاء متأخراً عن بقية الأنواع الأخرى من الآداب «لأن اهتمامات الإنسان ودراساته منذ أقدم الأزمنة، بدأت كاهتمامات كونية بعيدة عن حياة الإنسان نفسه»[5].

---

(1) علي الحديدي. الأدب وبناء الإنسان. طرابلس: منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص 7.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر، ص 8.

(4) هادي نعمان الهيثي. أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه. بغداد/ وزارة الإعلام، 1977، ص 72.

(5) نفس المصدر.

والمتتبع لأدب الأطفال يجد أن الفلسفة الواضحة لهذا الأدب بدأت مع نداء الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (1712 ـ 1778) الذي نادى بأن هدف التربية هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش، وأن تُترك الفرصة للأطفال لتنمية مواهبهم الطبيعية، وأن تقدم إليهم المعلومات التي هم في حاجة إليها. وقد استجاب الكثير من المربين والكتاب والأدباء لنداء رسو، وقدموا العديد من الكتب والمعلومات للأطفال، ولكنها كانت في معظمها بعيدة عن الحكايات وقصص الخيال، فكانت بالتالي متجاهلة لمشاعر وأحاسيس الأطفال[1]، مما أدى إلى عزوفهم عنها والاتجاه إلى قصص الكبار لعلهم يجدون فيها شيئاً من الخيال وبعض الألوان الأخرى من الأدب المبسط.

وقد استمر الاهتمام بأدب الطفل في أوروبا وأمريكا خلال القرن الماضي وهذا القرن حتى أصبح له شخصيته وأدواته، ووسائله، ووسائطه، والمهتمون به من مربين وكتاب وأدباء وفنانين، ودور نشر متخصصة في نشر أدب الأطفال من كتب ومجلات وبرامج مرئية ومسموعة وأشرطة خيالة وغيرها، ويوجد الآن في الولايات المتحدة وحدها أكثر من خمسة آلاف دار نشر متخصصة في هذا النوع من الأدب. ولكن الطفل العربي لم يجد مثل زميله الطفل الأوروبي أو الأمريكي العناية التي يجب أن يلقاها، خصوصاً من الأدباء والكتاب، ومن المجتمع نفسه الذي يعيش فيه هذا الطفل، على الرغم من وجود بعض المحاولات والمجهودات الفردية التي قام بها عدد قليل من الأدباء العرب في بداية هذا القرن وأواخر القرن الماضي؛ مثل أحمد شوقي ورفاعة الطهطاوي وعلي فكري ومحمد سعيد العريان وكامل كيلاني وغيرهم، إلاَّ أن أدب الأطفال في الوطن العربي لم يرتفع له شأن كما حدث في أوروبا وأمريكا؛ وذلك لعدة أسباب وعوامل يمكن تلخيصها في الآتي:

1 ـ أن الوطن العربي كان في معظمه مستعمراً من طرف الدول الاستعمارية التي حاولت طمس الثقافة العربية، مما أدى بالأدباء والكتاب إلى الانصراف «إلى مواجهة المستعمر، والاشتغال بالقضايا الاجتماعية والسياسية التي تفرض نفسها

(1) نفس المصدر، ص 75,

على الناس فرضاً، وتدعو إلى التعبير عنها شعراً أو نثراً؛ لما فيها من التصاق بالحياة ومواجهة مصيرية لها»[1].

2 ـ أن المجتمع العربي كان مجتمع الرجل، حيث لم يكن فيه للأطفال مكان، فكانت معظم الألوان الأدبية لابد أن تدور في فلك الرجال لترضي عواطفهم ورغباتهم.

3 ـ التشبث بالنظريات التقليدية العقيمة في التربية التي ترى في الطفل رجلاً صغيراً[2].

4 ـ ترفُّع الكتاب والأدباء آنذاك عن الكتابة للصغار، حيث كانوا يرون أن الكتابة للصغار تعد هبوطاً إلى مستوى لا يليق بهم، ولا يرقى بكتاباتهم إلى المجد الأدبي الذي كان يطمح إليه الكاتب أو الأديب.

5 ـ نظرة المجتمع العربي إلى أدب الأطفال في ذلك الوقت، وهي نظرة استهانة واستخفاف، مما أدى بهذه النظرة إلى أن تنعكس على المشتغلين به والقائمين عليه وبالتالي الإحجام عن الغوص فيه[3].

وعلى الرغم من أن هذه العوامل جميعها قد أسهمت في عدم الاهتمام بالطفل العربي، وعدم وجود ألوان ثقافية يستمتع بها كغيره من أطفال أوروبا وأمريكا، إلاَّ أنه ـ وكما ذكرنا سابقاً ـ وجدت بعض المحاولات التي أراد أصحابها أن يكون للأطفال العرب أدب يستمتعون به ويتذوقونه كغيرهم من أطفال العالم، وقد فترت همة بعض الكتاب نتيجة لعدم اهتمام الأدباء بهذا اللون حتى توقف عن الكتابة للأطفال مثلما حدث للشاعر أحمد شوقي، ولكن بعضهم لم يأبه بنظرة المجتمع إلى الأطفال وأدبهم، التي كانت ـ كما رأينا ـ نظرة استخفاف واستهانة، بل استمر في الكتابة والعطاء والاهتمام حتى وفاته، مثل كامل كيلاني (1897 ـ 1959) الذي يعتبره أدباء الأطفال اليوم «الأب الشرعي لأدب الأطفال في اللغة العربية، وزعيم مدرسة الكاتبين

---

(1) محيي الدين خريف، «إشكالات الكتابة الإبداعية وقضاياها بالنسبة لأدب الأطفال في تونس». الحياة الثقافية، ع 26 ـ 27، مارس ـ يونيو 1983، ص 86.

(2) هادي نعمان الهيتي، ص 104.

(3) علي الحديدي، ص 256.

للناشئة في البلاد العربية كلها»[1] وهذا الاعتراف بالفضل لكامل كيلاني جاء نتيجة كفاحة في سبيل إيجاد أدب رفيع للأطفال في اللغة العربية، فكان «أن أزال من طريق هذا الفن الجديد أوشابه وصعوباته، وأرساه على أرض صلبة من الموهبة والدراسة الأدبية والفنية، وفتح به آفاقاً جديدة من المتعة والمعرفة للطفل العربي لم يكن لآبائه أو أجداده عهد بها من قبل». وكذلك كان الحال مع محمد الهراوي (1885 ـ 1939) الذي يعد من الرواد الأوائل الذين وضعوا علامات مضيئة على طريق أدب الأطفال في الوطن العربي، ووهب نفسه وقلمه لخدمة الناشئة وأجيال المستقبل، وعالج العديد من الموضوعات التي تلائم روح الطفولة، وتساعدهم على تنمية قدراتهم وملكاتهم، وتكشف لهم سبل التعرف على بيئتهم والإحساس بالعالم من حولهم.

وقد أوجدت هذه المحاولات الفردية في ذلك الوقت مناخاً طيباً في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، حينما بدأ الإحساس بأهمية أدب الأطفال، والوقوف على حقيقة أن بناء المجتمع السليم والقوي يبدأ من الطفل. وقد زاد الاهتمام بهذا النوع من الأدب أيضاً نتيجة ازدياد الوعي التربوي وانتشار التعليم، خصوصاً بعد أن تحصلت معظم الأقطار العربية على استقلالها واتجهت لبناء نفسها. وفي بداية السبعينيات أصبح أدب الأطفال في الوطن العربي محل اهتمام العديد من الباحثين والدارسين العرب، واتجه عدد من الأدباء والشعراء إلى الكتابة للأطفال شعراً ونثراً؛ مثل القاصّ السوري المعروف زكريا تامر الذي كتب أكثر من مائة قصة للأطفال تناولت مواضيع متنوعة، حاول فيها أن يجد القيم التي رأى أنها جديرة بأن يتبناها الطفل، وحاول فيها أن يشجع الطفل على حب لغته العربية الفصحى، وأن تنمي قدراته على تذوق الأدب الذي يخاطب عقله وقلبه دون ترفع أو إسفاف[2]. وكذلك الشاعر العربي السوري المعروف سليمان العيسى، الذي اتجه إلى كتابة الشعر للأطفال بعد نكسة حرب يونيو 1967، وأصدر عدة أعمال شعرية للأطفال من بينها غنوا أيها الصغار، وكذلك المتنبي والأطفال.

---

(1) نفس المصدر.

(2) عيد معمر. «أدب وأدباء الطفولة». الثقافة العربية، س 10، ع 3، مارس 1983، ص 70.

ويقول سليمان العيسى في صدد اتجاهه للكتابة للأطفال إن هدفه من ذلك هو أن يشعر الأطفال بمتعة تذوق الأدب، ومتعة المعرفة، وأن يدركوا دورهم في بناء الوطن العربي[1]. وكذلك وجد عدد آخر من الأدباء الذين اتجهوا للكتابة للأطفال في بعض الأقطار العربية مثل عبد القادر عقيل، وهشام ناصر محسن، وخلف أحمد خلف، وعلي حسين علي، ومحمد علي من قطر[2]، وعبد المجيد عطية، ومحمد العروسي المطوي، والطيب التركي، ورياض المرزوقي، ومصطفى خريف في تونس[3].

فلسفة أدب الأطفال العرب:

ومن خلال الكتابات الموجودة والبحوث والدراسات التي أجريت حول أدب الأطفال في الوطن العربي، ومن خلال توصيات بعض المؤتمرات الأدبية والثقافية العربية، فإنه يمكننا أن نحدد الفلسفة والأسس التي يجب أن يكون عليها أدب الأطفال في الوطن العربي على النحو التالي:

1 ـ إن أدب الأطفال يجب أن يساهم في إعداد الطفل إعداداً إيجابياً في المجتمع، بحيث يأخذ مكانه ويشق طريقه، ويعرف دوره، ويكون مستعداً لتحمل مسؤولياته الاجتماعية.

2 ـ يجب أن يقوي أدب الأطفال في الأطفال الالتزام بالنظام، واتباع الأنماط السلوكية المبنية على الحب والعدل والمساواة والخير للجميع.

3 ـ يجب أن يخلق أدب الأطفال روح التضامن والتعاون بين الأطفال بدل الكراهية والحقد؛ لأن التعاون هو مفتاح تقدم المجتمع ورفاهيته.

4 ـ يجب أن يوقظ أدب الأطفال في الطفل مواهبه واستعداداته، ويقوي فيه ميوله وطموحاته، وينتهي به إلى الشغف بالقراءة والمثابرة عليها.

5 ـ يجب أن يكتب أدب الأطفال بلغة تكون في مستواهم بحيث يتذوقونه ويفهمونه في يسر، ودون أية مشقة أو عناء.

---

(1) من مقابلة مع الشاعر سليمان العيسى في مجلة الوطن العربي، عدد 72 (1978)، ص 60.

(2) عبد الرحمن المناعي. «رحلة نقدية مع كتب الأطفال في قطر». مجلة الدوحة، ع 87، مارس 1983، ص 120 ـ 123.

(3) محيي الدين خريف، ص 88.

6 ـ كذلك يجب على أدب الأطفال أن يثري الأطفال بثروة لغوية، وأن يكتب هذا الأدب بلغة عربية فصحى سهلة، حيث إن أثمن ما يمكن أن يقتنيه الأطفال في سنوات عمرهم هو لغتهم القومية.

7 ـ يجب أن يفتح أدب الأطفال أبواب التفكير والابتكار والإبداع لدى الأطفال العرب، بدل الاعتماد على التقليد الأعمى، ويجب أن تكون المعلومات المقدمة للأطفال معلومات تدفع بهم إلى التفكير، وكذلك فإن هذا التفكير يجب أن يكون واسع النطاق لا ضيقاً ومحدوداً.

8 ـ يجب أن يقوي أدب الأطفال في الطفل العربي اعتزازه بوطنه وأمته ودينه، وأن يهيئه للإسهام في بناء الوطن، وتعريفه بالقيم الإنسانية والقيم الحضارية الخالدة لأمته العربية الإسلامية.

9 ـ يجب أن يوظف أدب الأطفال لبعث التراث العربي الإسلامي، عن طريق تعريف الأطفال بالنواحي المشرقة الإيجابية من تاريخ أمتهم المجيدة.

إن الارتفاع بأدب الطفل العربي في الوطن العربي كله يوجب تضافر جهود المهتمين على المستويين الرسمي والشعبي، وجهود المربين وعلماء النفس والتربية العرب والكتاب والشعراء والفنانين مع جهود دور النشر المتخصصة في نشر كتب الأطفال وصحفهم ومجلاتهم، وإنتاج برامجهم المسموعة والمرئية، لكي يكون ما يقدم للطفل العربي ملائماً لمستوى نمو كل مرحلة من مراحل الطفولة العقلي والجسمي واللغوي، حتى يكون هذا الأدب دافعاً قوياً لتفكير الطفل وخلق روح التعاون والعمل والإبداع والابتكار، وبعث الشعور لديه بدوره في بناء الوطن وتحمل مسؤولياته في المجتمع.